القرن التاسع عشر

بقلم حضرة يوسف افندي بشلي (١)

القرن التاسع عشر آخر ابناء الدهر وقد استحوذ بحق الارث على كل ما كان للقرون السالفة من خير وشر ونفع وضر وهو كالوارث الامين الذي يسعى في اصلاح ما ورثهُ وترقية شأنهِ حتى اذا حان لهُ ان يسلم الميراث لورثتهِ وجدوا انهُ قد اتسع نطاقاً وازداد اضعافاً. ولا يصح ان يطلق اسم الشباب على قرننا الحالي بعد ما مضى عليهِ سن الكهولة ودخل في الشيخوخة والهرم ولم يبقَ الاَّ سنوات قلائل حتى ينضم الى ابائهِ ويمسي في خبر كان بعد ان يولد لهُ الوريث الوحيد الذي سيخلفهُ في ملكهِ

ومرادنا ان نبحث الآن بوجه الايجاز عن التقلبات التي طرأت على هذا القرن والنعيم الذي وصل اليهِ منذ تربعهِ في منصة الملك الى يومنا هذا ونفتش في سجلاتهِ لنعلم ما اذا كانت اعمالهُ تذكر فتشكر او تذم فترذل. وما سيورثهُ لخلفهِ حينما يقضي نحبهُ في منتصف الليلة الحادية والثلاثين من شهر دسمبر سنة ١٩٠٠ عند ما ينادي على رؤوس الملا بولادة وريثهِ القرن العشرين ويرحّب الناس طرًّا بهذا المولود الجديد ويدعون لهُ بالبركات والخيرات ويوارون اباهُ في اللحد مرددين مدح حسناتهِ آسفين على فراقهِ

اما شيخنا الجليل القرن التاسع عشر فقد مرت عليهِ السنون وهو سائر سيرًا حثيثاً في سبيل الارتقاء وقد امتاز على العصور السالفة بتوطيد دعائم العمران ونشر رايات التمدن فأرانا من قوة البخار عجائب ولم نكد نفيق من اندهالنا بالمنافع الجمة التي نجمت عن الآلات البخاريَّة حتى جاءنا بالكهربائيَّة في شخص اديسون الشهير فأدهش وابدع واخضع وميض البرق تحت سلطتهِ. وقام مورس فمد اسلاك الكهربائيَّة على البطاح والقفار وامرها فنطقت بفصيح الاشارة عما تكنهُ الصدور. وتبعهُ فيلد فارسلها تحت قاع البحار وربط ممالك الارض بالعروة الوثقى واحكم الصلات بين مشارق الارض ومغاربها ثم استخدمها غيرهم لانارة البيوت بنور باهر ولادارة الآلات العظيمة واجراء الاعمال الجسيمة. والحق يقال ان شيخنا الوقور قد خطا نحو الارتقاء خطوة لم يعهد لها مثيل عند اسلافهِ وشاهد في ايام مجدهِ امورًا لم يحلم بها اهل العصور الغابرة. وما الكهربائيَّة مع

(١) ملخصة من خطبة لجناب القس جنن الامركاني تلاها في جمعية اتحاد الشبان بالقاهرة مساء اول نوفمبر سنة ١٨٩٢

آياتها الباهرات سوى مثال واحد من امثلة كثيرة تبرهن بأجلى بيان على فضل هذا القرن وجلالة قدره

وقد ابتدأ قرننا هذا والناس يغزلون بالايدي وينسجون بالارجل فلم يبلغ سن الرشاد حتى اعاضهم عن ذلك بالآلات ثم سلط عليها قوة البخار فاراحهم من مشاق العمل واذاقهم حلاوة الراحة . وكان الناس والقرن حديث السن قانعين بما تخرج لهم ارضهم من الاثمار والخيرات غير طامعين بجنى البلدان البعيدة فلم يشبّ حتى مهد لهم السبل فتبادلت سكان الارض غلاّت بلادهم ومصنوعاتهم طائرة على اجنحة البخار فوق السهول والقفار والجبال والبحار

وقد ورد في تاريخ الانكليز ان اللورد كامبل احد اغنيائهم قطع في اوائل هذا القرن المسافة من لندن الى ادنبرج في ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ فاعتبرها الناس وقتئذٍ معجزة من المعجزات ونصح لهُ اصدقاؤهُ ان لا يخاطر بنفسهِ مرة أُخرى لان السرعة الزائدة ومقاومة الهواء ينشأ عنهما ارتجاج في المخ ينتهي بالموت الفجائي. فما يكون قول هؤلاء اليوم عند ما يشاهدون قطار السكة الحديد يقطع تلك المسافة عينها في ثلاث ساعات فقط . او ماذا يقولون لو بُعثوا احياء وسافروا في الصيف الماضي مع الالوف والربوات من مدينة نيويورك الى معرض شيكاغو ينهبون الارض نهباً على معدل ١٠٠ ميل في الساعة الواحدة . وكان السعاة في واقعة وطرلو الشهيرة سنة ١٨١٥ ينقلون اخبار الحرب الى لندن على اسرع ما يمكن اي في ثلاثة ايام ونصف . وفي سنة ١٨٨٢ اثناء ضرب الاسكندرية لم يكد يمضي بضع دقائق من اطلاق المدفع الاول حتى طارت الانباء عنهُ الى جميع انحاء اوربا . وممَّا هو من الغرابة بمكان ان ضرب الاسكندريَّة ابتدأ نحو الساعة الثامنة صباحًا ولم تأتِ الساعة السادسة من ذلك الصباح في مدينة نيويورك بامريكا حتى انتشر موزعو الجرائد في شوارعها يذيعون خبر ذلك . ولما كان الفرق في الوقت بين الاسكندرية ونيويورك نحو ست ساعات فتكون الاخبار قد انتقلت على اجنحة البرق من الاسكندريَّة الى نيويورك وتداولتها ايدي محرري الجرائد وجمع صنَّاع المطابع حروفها وطبعت منها المئات والالوف من النسخ ووزعت على القراء قبلما مرَّ اربع ساعات من الزمان اي قبل ما دلَّ عقرب الوقت عندهم على الساعة الثامنة بساعتين

وهاك مجمل الفرق بين حالة قرننا في نعومة اظفاره وبين حالته في سنيهِ الاخيرة. فانهُ شاهد وهو في السابعة من عمرهِ اول مركب بخاري يمخر عباب الماء . ولمح في الثلاثين

اول قطار ينساب كالافعوان في وسط القفار يقلّ المئات من الانفس وراقب امتداد الخطوط الحديديّة تدريجاً على وجه البسيطة حتى بلغت منذ ثلاث سنوات ٣٦٠٠٠٠ ميل وهي لو امتدت على خط مستقيم حول الكرة الارضيّة لاحاطت بها ١٥ مرة . ونظر في الرابعة والاربعين من عمره اول رسالة تلغرافيّة تطير على جناح البرق بين مدينتي وشنطن وبلتيمور وهذا نصها « انظروا ما اعظم اعمال الخالق عزّ وجلّ » . وما زال التلغراف يرتقي في ايامه حتى تمكن الناس حديثاً من ارسال ٧٢ رسالة مختلفة على سلك واحد في وقت واحد . وقد تمكن اليوم قطار السكة الحديد اثناء السير السريع من ايصال الاخبار تلغرافيّاً الى قطار آخر سائر على خط آخر في الجهة المقابلة او الى محطة تبعد عنهُ الوفاً من الاميال . وبلغهُ في الثامنة والخمسين من عمره ان اميركا ارتبطت باوربا بالاسلاك البرقيّة ممتدة تحت قاع المحيط وأُصغي الى اول رسالة برقيّة سارت بينهما ونصها « اوربا واميركا قد اتحدتا – المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة » . وبعد ذلك بثلاث سنوات امتد خط آخر بين ثغر الاسكندريّة ومالطة طولهُ ١٣٣٠ ميلاً ولم تزل الشركة التلغرافيّة الشرقيّة الى يومنا هذا تستعمل هذا الخط فهو اقدم خط برقي مستعمل الآن في العالم

ولا مشاحة ان التلغراف والسكك الحديديّة كان لهما اليد الطولى في ترقي الانسان وانتشار العمران وتنظيم الهيئة الاجتماعيّة وتوطيد الالفة والتعاون وبث نور المعارف والعلوم . اما السفن البخاريّة فمن اعظم مخترعات عصرنا واهمها وقد ظُنّ اولاً انهُ لا يمكن ان تقطع البحر لانها لا تسع ما يكفيها من الفحم للطريق ثم ثبت فساد هذا الظن وصارت تقطع الاوقيانوس الاتلنتيكي في اقل من اسبوع

اما فضل قرننا الحالي في تقدم العلوم وتعميم المعارف فمما لا يختلف فيهِ اثنان ولا يمكن استيفاء ذلك الاّ في المجلدات الضخمة بل ان اختراعات عام واحد واكتشافاته وترقية المعارف فيهِ يقتضي وصفها مجلداً كبيراً فمن العبث الخوض في بحار علوم هذا القرن باجمعها ولذلك نكتفي بالالماع اليها . ولاريب ان للطباعة اليد الطولى في انتشار العلوم ورفع منارها وانهُ اذا وضعنا عجائب الدنيا السبع في كفة ميزان واختراع الطباعة في الكفة الاخرى رجحت هذه عن تلك . وبعد ان كانت آلة الطباعة في اوائل هذا القرن لا تطبع اكثر من ٢٥٠ صحيفة في الساعة ويقتضي لادارتها رجلان وصبي اصبح ولد واحد كافياً لمناولة الآلة طرف درج طويل من الورق فتقطعهُ وتطبع منهُ ٣٦٠٠٠٠ صحيفة

من صحف الجرائد الكبيرة وتلصقها وتطبقها وترتبها صفوفًا في ساعة واحدة من الزمان ثم تحملها القطارات والسفن البخارية وتوزعها في اقصاء المسكونة فيقرأها الغني والصعلوك ويجني فوائدها الكبير والصغير

شب قرننا فشاهد القوي يستعبد الضعيف والغني يبتاع الفقير والوجيه يسترق المستضعفين فلم ينتصف عمرهُ حتى اثار نار الحرب وراء الحرية والمساواة اثباتًا بان جميع بني البشر من دم واحد . وكانت حكومات الممالك السابقة تدوس رقاب رعيتها وتحكمها بالقوة والجبروت اما عصرنا فجعل الرعية تحكم نفسها بنفسها وتدير ولاة امورها بحكمة افرادها

شب قرننا ولم يبلغ اشدهُ حتى سمع الناس يقولون على رؤوس الاشهاد ويخطبون في كل نادٍ ان الباري سبحانهُ خلق الانسان ووهبهُ حقوقًا مقدسة يتمتع بها . وقال علماؤهم ان تلك الحقوق تشمل الحياة والحرية وطلب السعادة والسعي وراء الراحة الخ . وجاهروا بهذه الاقوال وهم يسترقون بني جنسهم ويستعبدون اخوانهم ويسلبونهم حريتهم ويتاجرون فيهم كالمتاع ويتحكمون في اجسادهم وارواحهم كتحكمهم في الحيوانات البكم . ولكن عصرنا لم يطق على هذا الظلم صبرًا فرفع نبراس الحق على منارة العدل والمساواة ودبت الحمية في صدور الاحرار فاشهروا حربًا عوانًا على الذين اصروا على العناد وقام حاكم السيف يقضي بينهم في نصف الكرة الغربي فبلغ صليلهُ كل فج وقوّض اركان الاستعباد والاستبداد بعد ان اذاق نحو مليون من نخبة شبان تلك الولايات كاس المنون فشيد على ارماسهم قصر الحرية وقسطاس العدل وسطّر بدمائهم على جبين الدهر : " ان الله خلق جميع الناس من دم واحد احرارًا متساوين في الحقوق "

ابتدأ عصرنا ولم تكن بقعة خالية من العبيد وكانت اسواق التجارة بهم رائجة في روسيا وهنغاريا وبروسيا والنمسا واسكتلندا وفي جميع المستعمرات الانكليزية والفرنسوية والاسبانية . وكان يأتي الى قارة اميركا كل سنة ما ينيف على ٧٤٠٠٠ نفس من الرقيق يحملها اليها اناس من امم اوربا المتمدنة . وكان عدد الذين يموتون منهم على الطريق لا يقل عن ٣٠٠٠٠ نفس . فاصبحنا اليوم والحمد لله لا نجد بهمة انصار الحق عبدًا واحدًا في جميع اراضي الامم المتمدنة بل نرى الجميع متمتعين بكمال الحرية وما الفضل في ذلك الاَّ لرجال عصرنا الحالي

وُلد قرننا وكانت منزلة النساء في اعين الرجال لا تقلُّ كثيرًا عن منزلة الاماء

والعبيد لابل عن منزلة الحيوانات الدُنيا كأن المولى سبحانهُ لم يخلقهن الاَّ لخدمتهم وهاك مثال بعض ما كان يعلن عنهنَّ في الجرائد الانكليزيَّة في اوائل هذا القرن. قالت مجلة هود الانكليزيَّة في عددها الصادر في شهر سبتمبر سنة ١٨١٤ : " عرضت امرأة جميلة الصورة رشيقة القد وهي زوجة جون هول بعد اقترانهِ بها بشهر وبيعت بالمزاد العمومي بمبلغ شلنين ونصف وبيع المقود الذي أُتي بها فيهِ بنصف شلن وقدرت عوائد المرور بيني واحد وعوائد الاقامة بثلاثة بنسات " فتامل . وقد حسب بعضهم سنة ١٨١٥ ان عدد الزوجات اللواتي عرضنَ للبيع كالمواشي في جهة واحدة من بلاد الانكليز في سنة واحدة ٣٩ امرأة . اما الآن فنفتخر والحمد لله بان والداتنا وزوجاتنا واخواتنا لهن الشأن الاعظم في نظام الهيئة الاجتماعيَّة وفي ارضاع البان التهذيب وتثقيف عقول الصغار وتوطيد دعائم العمران

شاهد قرننا وهو طفل كثيرًا من الخرافات والخزعبلات وعاين ما لا يحصى من السحرة والعرافين ورأى مرأى العين الوفا يذهبون ضحيَّة الاوهام والجهل فكانت حياة الارنب في اعين الانكليز اثمن من حياة الرجل حتى اذا اقدم احدهم على قتلها عوقب بالاعدام. وكان عدد الجرائم الكبيرة عندهم بحسب شرائعهم ٢٢٣ جريمة جزاؤها كلها الاعدام حتمًا. من ذلك ان من يتلف شيئًا في قنطرة وستمنستر يشنق ومن يظهر في الشوارع بزيّ غير زيهِ يُشنق وهذا جزاء من يقلع صغار الاشجار او يصيد ارنبًا او يسرق متاعًا لا تقل قيمتهُ عن خمسة شلنات او يحرر كتابًا بقصد الاحتيال والاختلاس او يعود من منفاهُ قبل انتهاء مدتهِ. فهذه الذنوب الطفيفة وكثير نظيرها كانوا يعاقبون مرتكبيها بالشنق . ومن هذا القبيل ما ذكرهُ احد مؤرخيهم وهو ان عدد المحكوم عليهم بالاعدام في وقت من الاوقات بلغ ٥٨ شخصًا ومن جملتهم صبي لا يزيد عمرهُ على العشر سنوات . فهل بعد ذلك من ينكر فضل تقدم عصرنا وهل من يقدّر قيمة الحريَّة (لا سيما حريَّة الافكار والاديان) والعدل والمساواة حق قدرها التي يتمتع بها الجميع الآن. وهل من يطلب اقامة الحجة والبرهان بعد ان بزغت شمس التمدن والمعارف واشرقت بأشعتها على جميع سكان الارض بالسواء فأنعشت الضعيف وبددت ظلمات الجور والعدوان وازالت غشاوة الجهل والغباوة ورفعت منار الحق والانصاف وأحيت العظام في رمسها فتحرر العبد وامتيقظ الغافل وتشجع الجبان وذاق الجميع لذة الحريَّة فطربوا من عذوبتها وتمسكوا بأذيالها ولا تمسك الغريق بحطام السفينة وهيهات ان يتركوها ويرجعوا الى

الوراء. ولا زالت سطوتها تمتد ودائرة نفوذها تتسع وتظلل بظلها الظليل الالوف والربوات ممن كانوا يخبطون في دياجي الظلمات ويرتطمون في اوحال الجهل فيجدون في ربوعها السعادة الحقيقيَّة والراحة ورغد العيش . نعم لا ينكر ان دول اوربا لا تزال تحشد الجيوش الجرارة وتكثر من آلات الحرب والقتال وتقيم القلاع وتبني المدرعات والجرائد تهددنا بقرب انتشاب نار الحرب واحتدام سعيرها واهراق دماء الملايين من الابرياء وحلول الخراب والدمار لكن العقلاء يجاهرون ويؤكدون بان قرننا الشيخ الجليل لا يسمح بحدوث شيء من هذا في ايامهِ الوجيزة بل ما برح يحاول نزع السلاح وتوطيد السلام ونشر لواء الاتفاق والاخاء بما بقي فيهِ من رمق الحياة ولنا الامل الوطيد بفوزهِ في سعيهِ الحميد فيأتي بعمل خطير لم يسبقهُ اليهِ غيرهُ ويخلد لهُ ذكرًا بين العصور لا تمحوهُ كرور الايام وتوالي الاعوام قبلما يودعنا الوداع الاخير

وكان بودي ان آتي قبل ختام هذه الخطبة بالشرح الوافي عما تم في هذا القطر من الارتقاء الظاهر والتقدم الباهر مدة قرننا هذا لكن ذلك اشهر من ان يذكر وهو ظاهر لكل ذي عينين ولا ينكرهُ الاَّ كل مكابر جحود ولنا عليهِ كل يوم الف شاهد واننا نسأل المولى الكريم ان لا ينتهي قرننا هذا حتى تكون بلادنا قد بلغت ما نتمنَّاهُ من الارتقاء انهُ على كل شيء قدير

علي باشا مبارك

ذكرنا في الجزء الماضي من المقتطف ترجمة المرحوم علي باشا مبارك من حين كان ولدًا يتعلم مبادئ القراءة والكتابة الى ان توفي المرحوم سعيد باشا سنة ١٢٧٩ للهجرة (١٨ يناير سنة ١٨٦٣) وقام بالامر بعدهُ حضرة الخديوي الاسبق اسمعيل باشا . فلما تولى مسند الحكومة المصريَّة عين صاحب الترجمة لنظارة القناطر الخيرية ولم تكن تقفل الى ذلك العهد ظنًّا انها غير متينة فلا تحتمل ضغط الماء اذا أُقفلت . وكان النيل قد تحول اكثرهُ الى الفرع الغربي فقلت المياه التي تجري صيفًا في الترع الممتدة من الفرع الشرقي وقلت الاطيان التي تزرع صيفًا حول ذلك الفرع . وذاكرهُ الخديوي اسمعيل باشا في هذا الامر فاشار باقفال القناطر الغربيَّة لتحويل الماء الى الفرع الشرقي حاسبًا ان من ذلك نفعًا محققًا ولا يحسن ترك النفع المحقق خوفًا من الضرر الموهوم. فاستصوب الخديوي